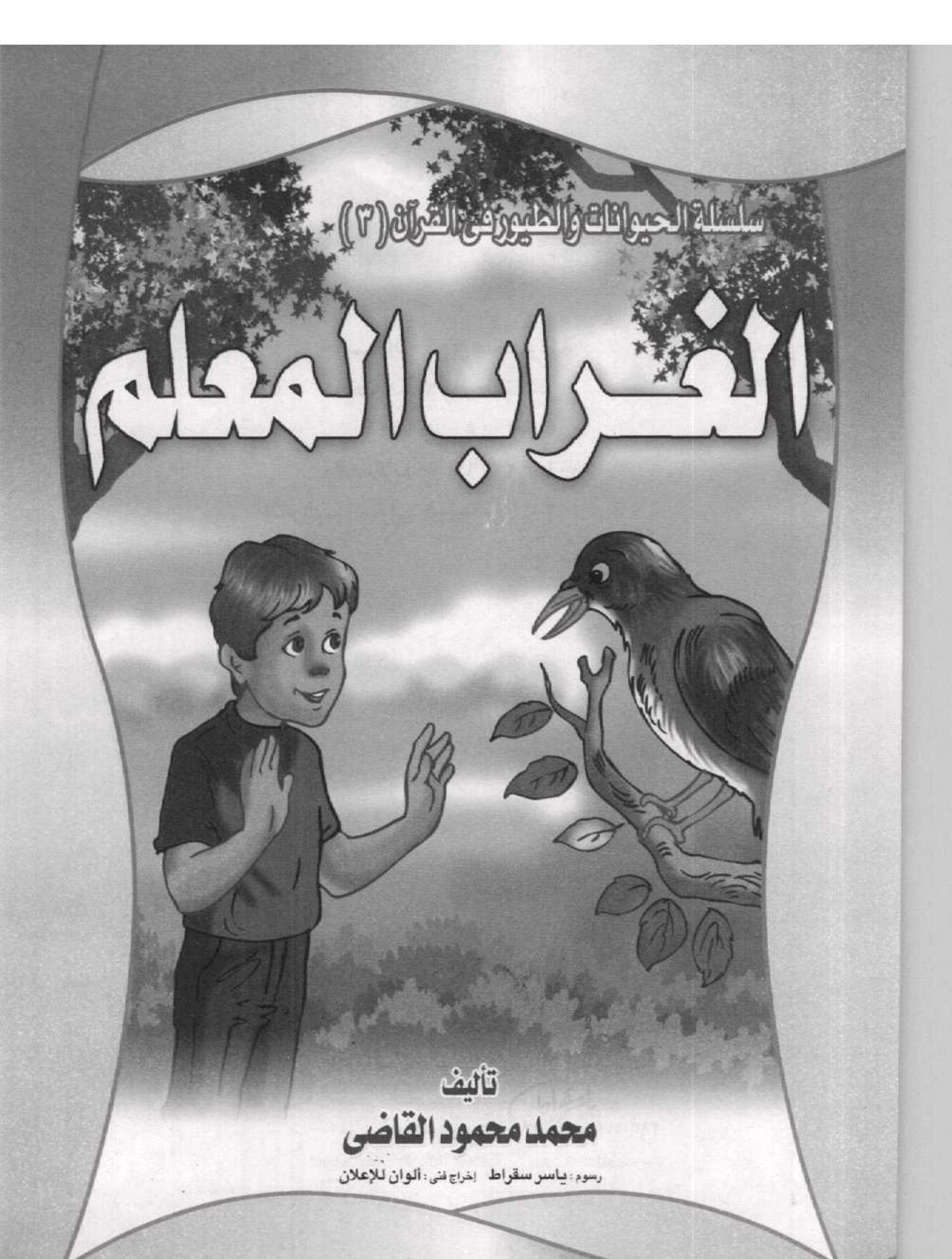
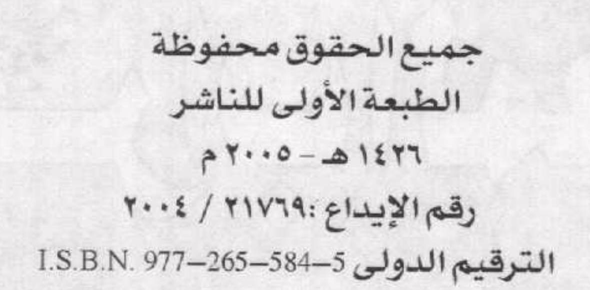
سلسلة الحيوانات والطيور في القرآن (٣)

الغراب المعلم



تأليف
محمد محمود القاضى

رسوم: ياسر سقراط إخراج فنى: ألوان للإعلان



الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
رقم الإيداع: ٢١٧٦٩ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-265-584-5



دار التوزيع والنشر الإسلامية
مصر - القاهرة - السيدة زينب ص- ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بور سعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢- فاكس ٣٩٣١٤٧٥
www.eldaawa.com Email: info@eldaawa.com

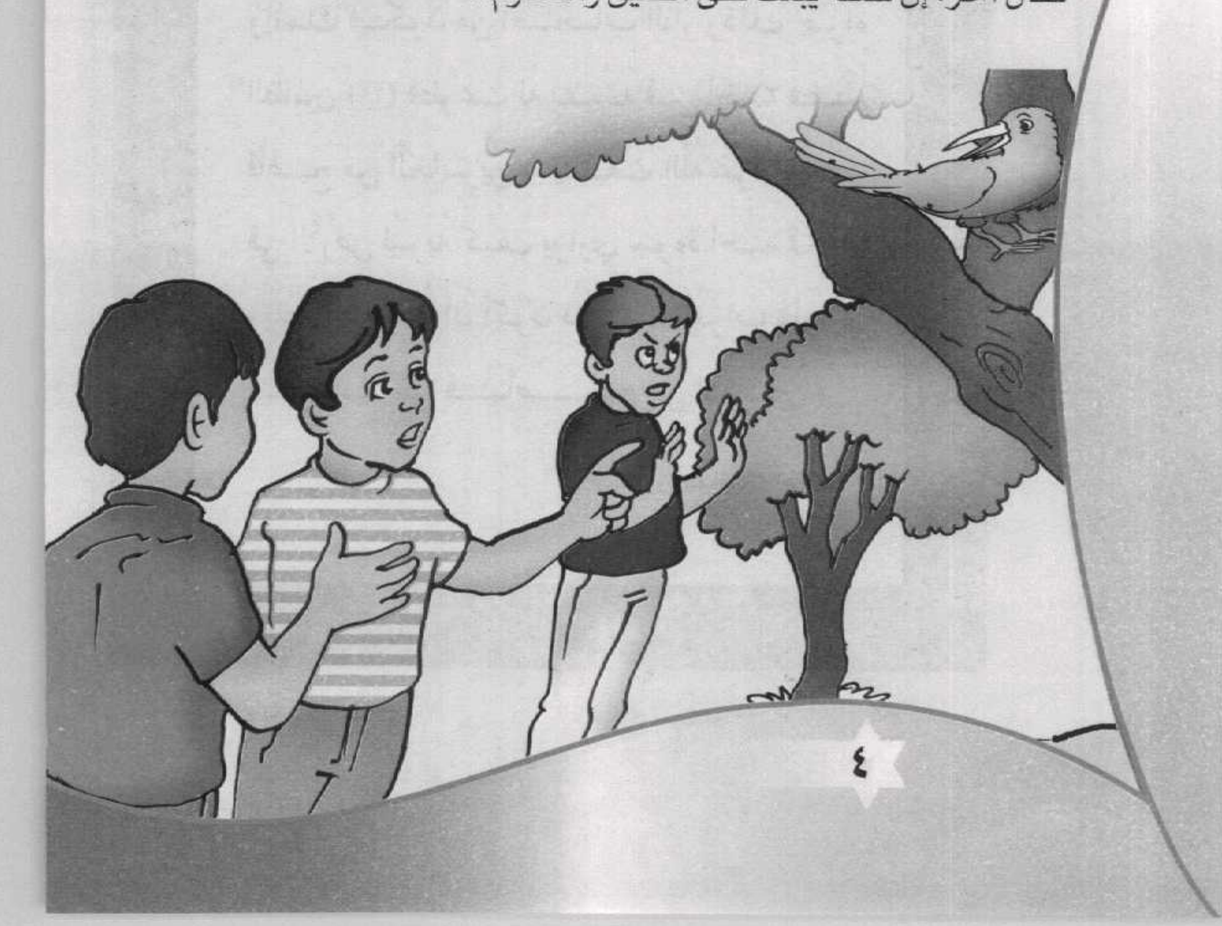
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ
مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ
يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي
وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ
فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا
وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ
سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

«سورة المائدة ٢٧-٣١»

أنا غراب من الغربان.. ريشى أسود اللون كما تعرفون.. وكنت ذات يوم أقف فوق غصن شجرة كبيرة فى إحدى الحدائق.. وبينما أنا فى مكانى أقبل ثلاثة من الأولاد للعب والمرح تحت الشجرة التى أقف فوقها.. وكان الجو فى هذا اليوم جميلاً ممتعًا يبعث على البشر والسرور والفرح والمرح.. وبدأ الأولاد فى لعبهم ومرحهم فرحين ومسرورين.. فطربت لفرحهم.. وحاولت أن أغنى بصوتى لأعبر لهم عن فرحى بهم.. ووجودهم قريبًا منى.. ولكن عندما سمع الأولاد صوتى توقفوا عن اللعب، وأخذوا يتساءلون عن مصدر هذا الصوت المزعج.. فنظر أحدهم إلى الشجرة فوجدنى.. فقال لزملائه وقد أشار إلىَّ: إنه صوت هذا الغراب الأسود..

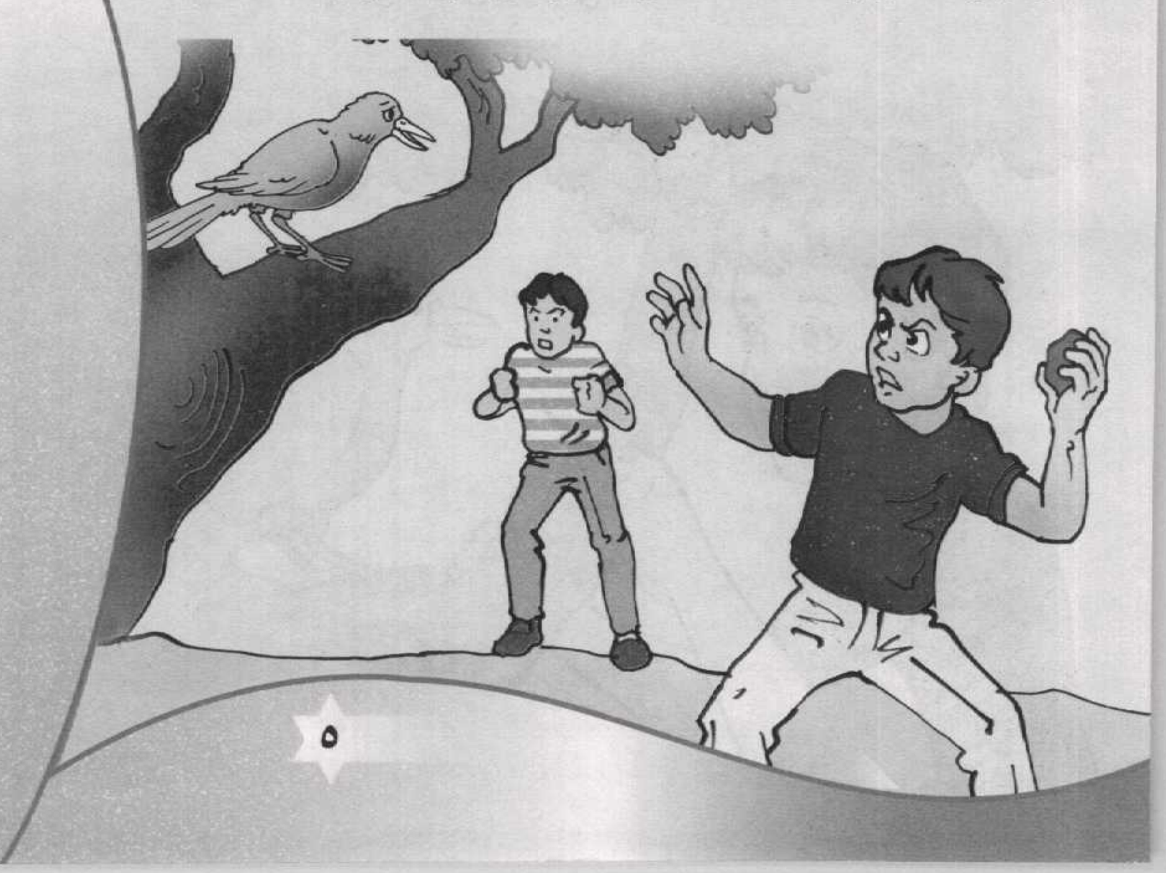
فقال آخر: إن شكله يبعث على الضيق والتشاؤم..



فحزنت كثيراً فى نفسى.. وتأثرت بكلام الأولاد عنى.. وقد أردت مشاركتهم فى لعبهم ومرحهم.. وغنيت لهم لأدخل السرور عليهم.. وفجأة حاول أحدهم أن يطردنى من فوق الشجرة لأنه قد تشاءم من وجودى.. كما أننى- حسب قوله- أفسدت عليهم يومهم.. وقام هذا الولد برمى الحجارة الصغيرة علىّ.. فلم أتمالك نفسى وقلت للأولاد بصوت حزين: لِمَ تفعلون معى هكذا أيها الأولاد.. وأنا أحبكم.. وقد فرحت بوجودكم قريباً منى.. فقال أحدهم: نحن نتشاءم منك.. فقلت له: هذا خطأ كبير منك.. فالمسلم ينبغى ألا يتشاءم من شىء.. والنبى ﷺ يقول: "لا عدوى ولا طيرة" .. وقد كان النبى ﷺ لا يتطير..

فقال أحد الأولاد: عندك حق أيها الغراب.. وشكراً لك لأنك ذكرتنا بهذا الأدب النبوى الرفيع..

فقال لى ولد آخر: ولكنك أخطأت أيضا فى شىء أيها الغراب..



فقلت له: وما هذا الأمر الذى ترانى أخطأت فيه..

فقال الولد: أنت لا تجيد الغناء.. كما أن صوتك مزعج وغير جميل.. وإذا كنت حقًا تريد أن تسعدنا فكان ينبغى عليك أن تختار شيئًا تجيده وتحسنه لكى تمتعنا به..

قال الغراب: لقد أحسنت فى كلامك أيها الولد النبيه، ولقد ذكرتنى بقول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

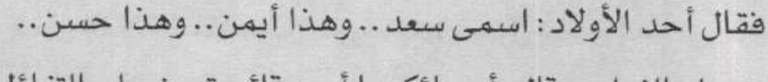
قال الولد: هذا كلام حكيم منك أيها الغراب..

الغراب: شكرًا.. شكرا يا صديقى .. فأنت الذى نبهتنى إلى هذا الأمر.. ولذلك سوف أسعدكم وأمتعكم بشىء أجيده الآن..

تعجب الأولاد وقالوا: وما هو هذا الشىء الذى تحسنه وتجيده أيها الغراب؟

قال الغراب: ينبغى أولاً أن تعرفونى بأنفسكم..





فقال أحد الأولاد: اسمى سعد.. وهذا أيمن.. وهذا حسن..

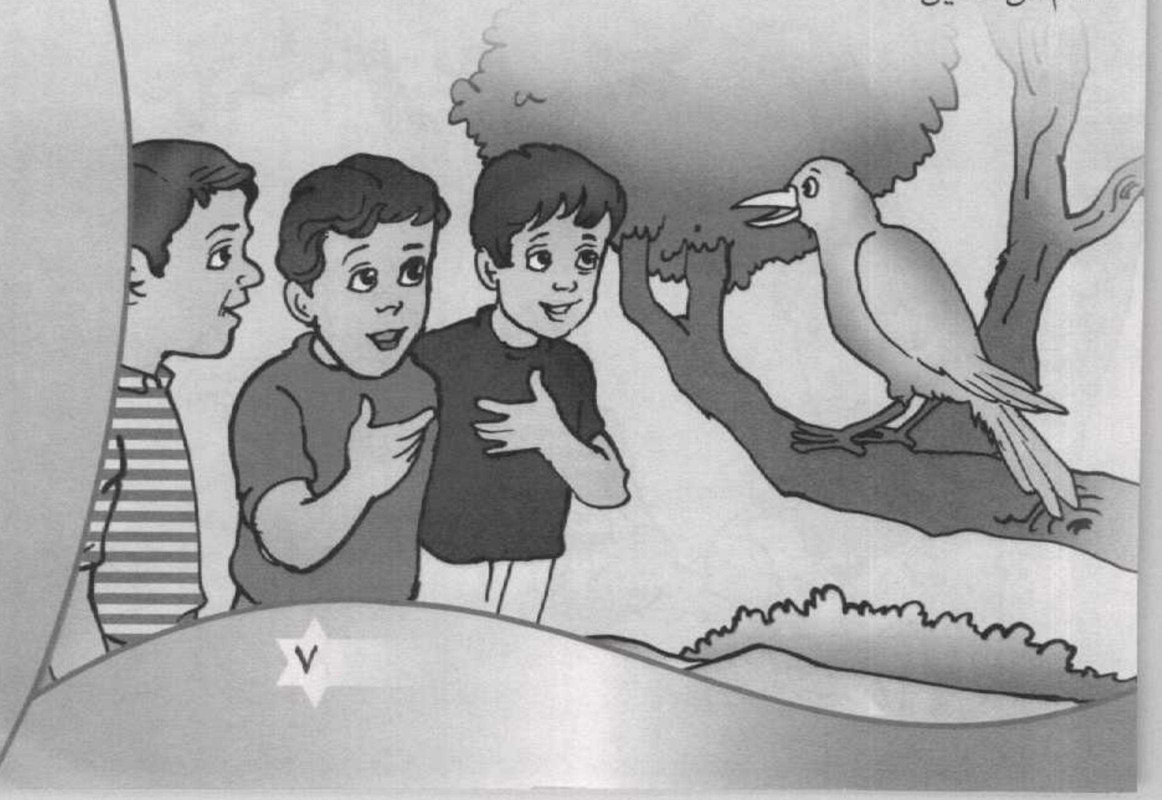
ضحك الغراب وقال: أسماؤكم يا أصدقائى تبعث على التفاؤل حقًا.. وقد كان الرسول ﷺ يحب الفأل الحسن..

قال سعد: شكرا لظرفك معنا أيها الغراب.. والآن بأى شىء تريد أن تمتعنا؟

قال الغراب: سوف أحكى لكم قصة جدى غراب ابنى آدم..

قال الأولاد بدهشة: غراب ابنى آدم.. يبدو أن فصيلة الغربان قديمة جدًا..

قال الغراب: نعم.. فنحن الغربان من أقدم الطيور التى تعيش فى الأرض.. فمنذ زمن بعيد .. بعيد.. خلق الله سبحانه آدم عليه السلام .. وأمر الملائكة أن تسجد له تكريمًا .. وتعظيمًا لخالقه .. فسجدت الملائكة كلهم إلا إبليس الذى رفض أن يسجد لآدم مدعيًا أنه خير منه.. لأن الله خلقه من النار.. وخلق آدم من الطين..



قال حسن: نحن نعرف أن الملائكة خلقت من النور.. فكيف يقول إبليس إنه خلق من النار..

قال الغراب: كان إبليس من الجن المؤمنين الطائعين ، وكان كثير العبادة والتقرب إلى الله ، واتصف بأفعال الملائكة وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك، فأكرمه الله سبحانه ، ورفعه إلى درجة الملائكة ..

وعندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، فتن إبليس بنفسه واغتر بمنزلته، وظن أنه خير من آدم واستكبر أن يسجد له، فعصى أمر الله.. وهكذا امتلأ قلب إبليس حسدًا وكبرًا فأبى أن يسجد لآدم ..

قال سعد : إذن الصراع بين آدم وذريته من جهة وإبليس اللعين من جهة أخرى صراع قديم جدا..

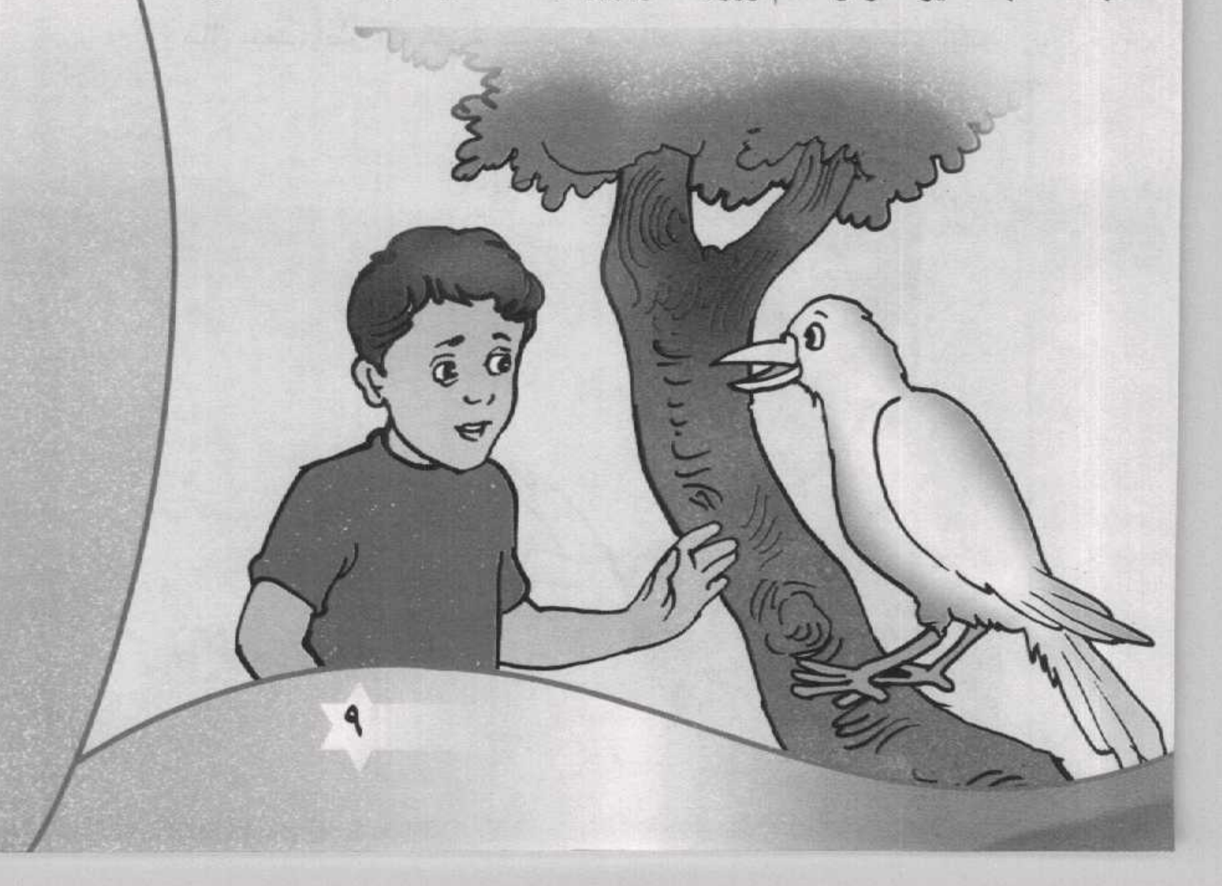
قال الغراب: نعم يا سعد، فمنذ هذه اللحظة انكشف ميدان المعركة الخالدة: المعركة بين طبيعة الشر فى إبليس، وبين خليفة الله فى الأرض، المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان،



المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يتمسك الإنسان بعهده مع الله، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته، ويبعد عن ربه.. فقد طرد الله سبحانه إبليس من رحمته ، وحذر آدم منه ومن كيده ، وأخبره بأن إبليس صار عدوًا له ولذريته من بعده.. وتوعد إبليس آدم وذريته بأن يغويهم ويبعدهم عن عبادة الله حتى يحشروا معه فى النار ، فسأل الله أن يؤخر موته إلى يوم القيامة ليواصل كيده لآدم وذريته.

قال أيمن: وهل بدأ الصراع هكذا مباشرة؟

قال الغراب: لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يؤنس آدم فى وحشته.. فخلق له حواء لتكون زوجة له.. وأسكنهما الجنة يأكلان من خيراتها ويتنعمان بثمارها وطيبها ، وحذرهما أن يأكلا من شجرة واحدة معينة منها .. وحذرهما الله - سبحانه - من إبليس ومكائده ، ووجدها إبليس فرصة مناسبة لإغواء آدم وزوجه وإخراجهما من الجنة! فبدأ يوسوس لآدم وزوجه ويزين لهما الأكل من هذه الشجرة ،

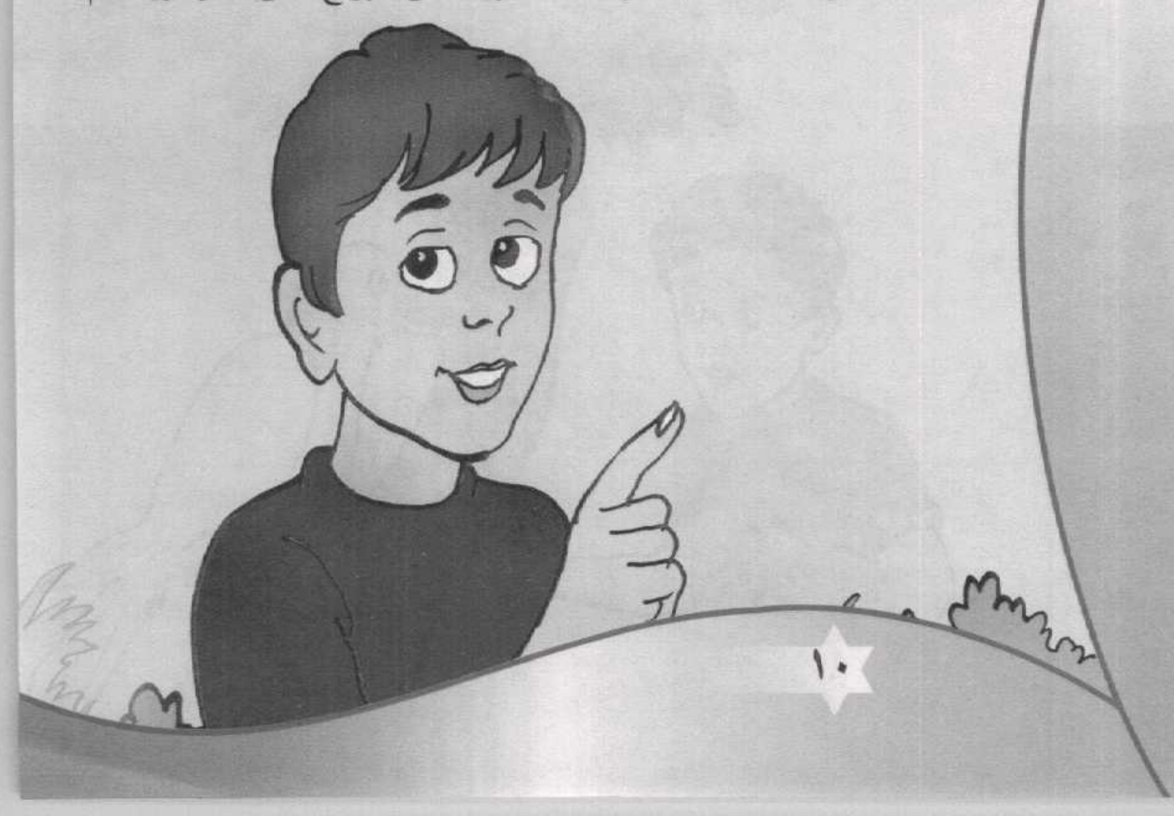


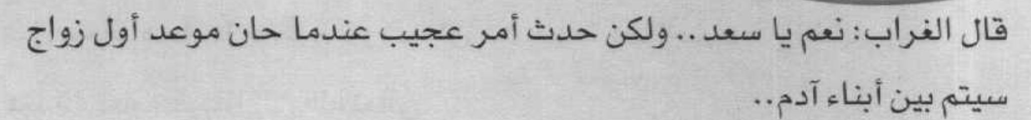
ويقسم لهما أنه ناصح أمين، وأنهما إذا أكلا من هذه الشجرة حصل لهما الخلد في هذا النعيم ، ولن ينقطع ملكهما ذلك ولن يبيد .

فاغتر آدم وحواء بكلام إبليس وصدقاه ، فأكلا من الشجرة وعصيا الله سبحانه.. فأهبط الله عز وجل آدم وحواء ومعهما إبليس إلى الأرض ليبدءوا على ظهرها رحلة حياة جديدة من التعب والشقاء والصراع ... وبدأ آدم عليه السلام مسيرة الحياة على الأرض ، وعلمه الله سبحانه صنعة كل شىء فبدأ يزرع ويحصد، ويغزل وينسج.. ويحفر الآبار ويعمر الأرض.. ورزق الله آدم وحواء بالبنين والبنات ، فقد كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى .. وأمره الله أن يزوج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه ، والآخر بالأخرى، وهكذا ، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذى ولدت معه.

ولم تلد حواء فى بطن واحد غير شيث.

قال سعد: أظن أنه كان لا بد من هذه الطريقة فى الزواج حتى تكثر ذرية آدم..





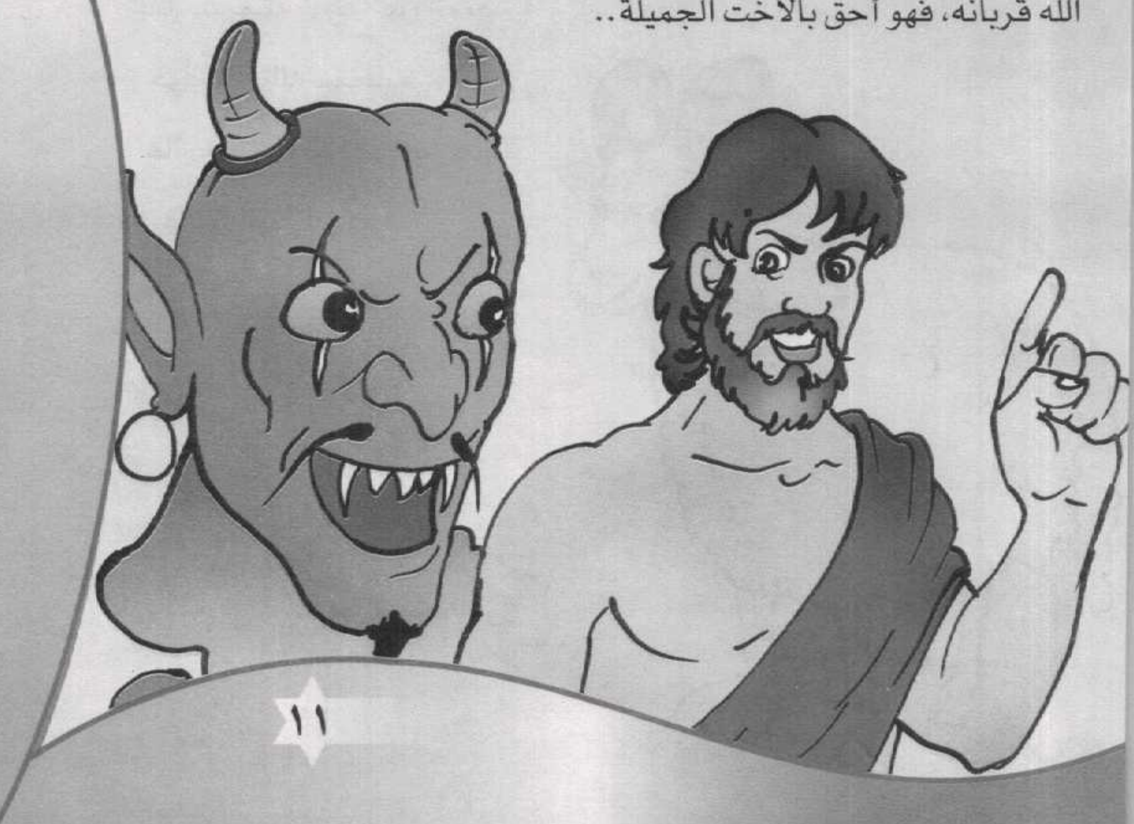
قال الغراب: نعم يا سعد.. ولكن حدث أمر عجيب عندما حان موعد أول زواج سيتم بين أبناء آدم..

قال حسن: وما هو هذا الأمر أيها الغراب؟

قال الغراب: أراد هابيل بن آدم أن يتزوج بأخت قابيل أخيه الأكبر، حسب شريعة آدم - عليه السلام - فى زواج أبنائه ، ولكن قابيل رفض ذلك وأراد أن يتزوج بأخته التى ولدت معه فى بطن واحد ، لأنها كانت أجمل من أخت هابيل ، وقال لهابيل: هي أختى ولدت معى، وأنا أحق بها.

قال أيمن: إذن إبليس بدأ رحلة الصراع مع أبناء آدم.. فماذا فعل آدم عليه السلام أمام هذه المشكلة الجديدة..

قال الغراب: أمر آدم ابنيه أن يقرب كل واحد منهما قربانًا لله تعالى، ومن يتقبل الله قربانه، فهو أحق بالأخت الجميلة..

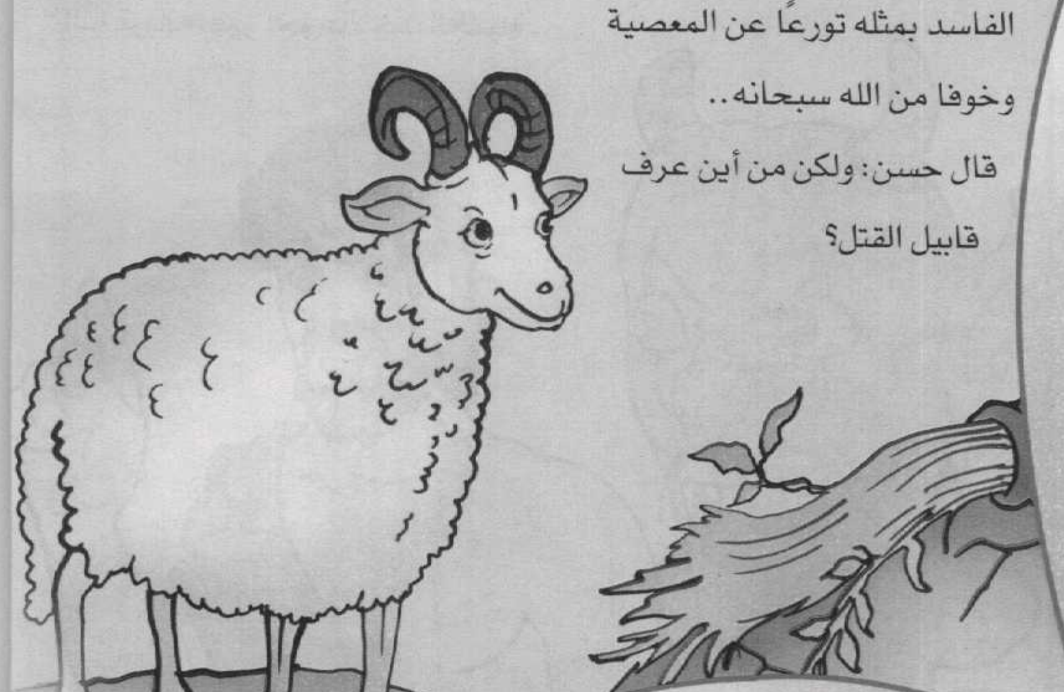


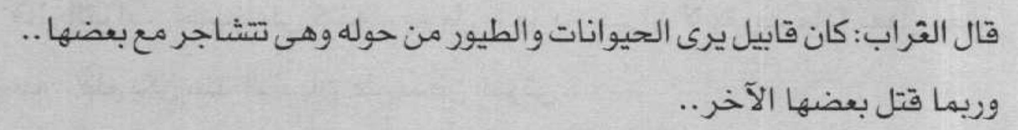
قال سعد: هذا حل عظيم.. ولابد أن كلاً منهما قد اجتهد فى اختيار أحسن ما عنده ليقدمه قربانا إلى الله تعالى..

قال الغراب: كان هابيل صاحب غنم، فقرب لله كبشًا كبيرًا سمينًا هو أحسن ما عنده من الأغنام، بنفس طيبة، بينما قرب قابيل صاحب الزرع أسوأ ما عنده من الزرع والحرث.

فتقبل الله سبحانه قربان هابيل، وهنا وجد إبليس اللعين الفرصة المناسبة ليوقع بين الأخوين، فملأ قلب قابيل حسدًا وبغضًا على هابيل، مما جعل قابيل يتوعد أخاه بالقتل وكان هابيل سمحًا طيبًا، فقال لأخيه: إنما يتقبل الله من المتقين الذين يخافون الله فى أفعالهم وأعمالهم. ورفض هابيل أن يواجه صنع أخيه الفاسد بمثله تورعًا عن المعصية وخوفا من الله سبحانه..

قال حسن: ولكن من أين عرف قابيل القتل؟





قال الغراب: كان قابيل يرى الحيوانات والطيور من حوله وهى تتشاجر مع بعضها.. وربما قتل بعضها الآخر..

قال أيمن: وهل كان قابيل جادًا فى تهديد هابيل؟

قال الغراب: لقد زين إبليس لقابيل أمر القتل.. مما جعله يظن أن الأمر سهل.. وإذا تخلص من هابيل فسوف يتزوج بأخته.. ولذلك امتلأت نفس قابيل حسدًا وبغضًا وحقدًا على أخيه فقتله.

قال أيمن: يا له من ذنب عظيم أن يقتل الإنسان أخاه ظلمًا وعدوانًا.. ولقد فهمت الآن حديث الرسول ﷺ الذى يقول فيه: "لا تُقتلُ نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل" (رواه أحمد)..

قال سعد: وماذا فعل قابيل بعد أن قتل أخاه؟



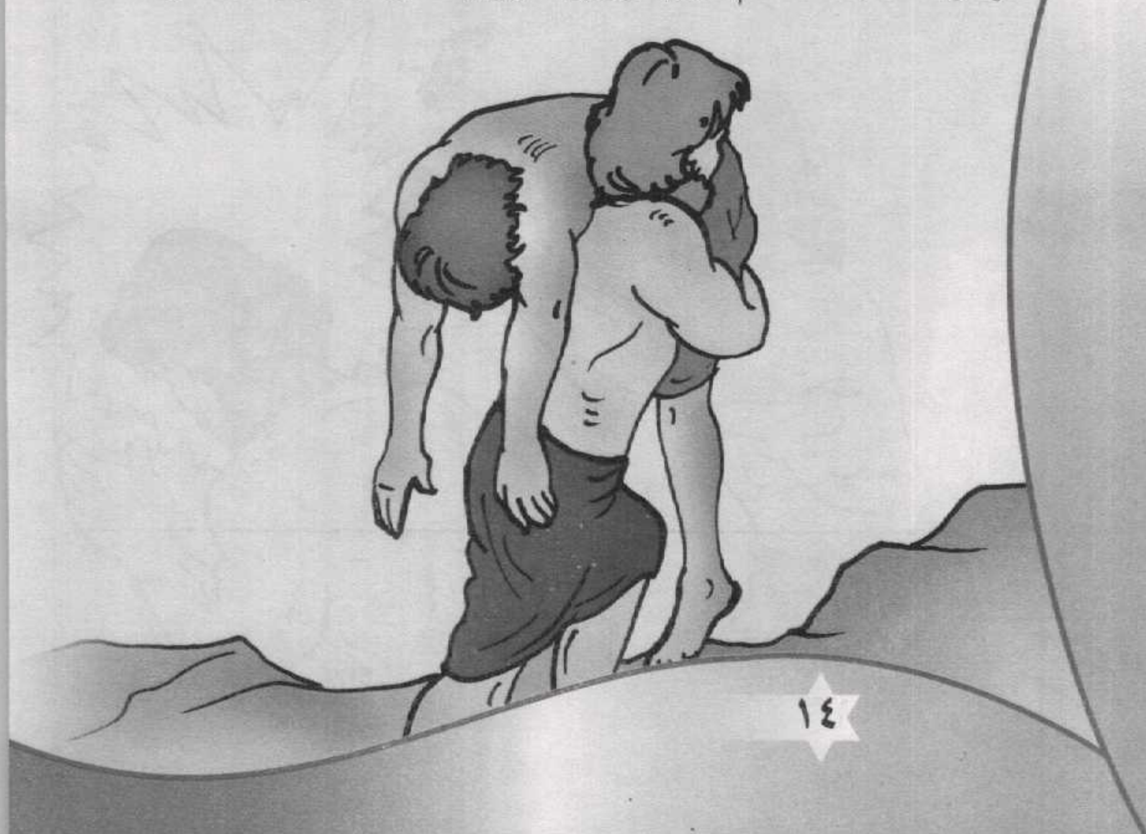
قال الغراب: حمله على كتفه.. وجعل يدور به حيران لا يعرف ماذا يفعل بجثة أخيه.. فلم يكن عند الإنسان علم بدفن الموتى..

قال حسن: ربما يفهم من ذلك أن هابيل هو أول من مات من بنى آدم فوق الأرض.. والعجيب فى الأمر أن يموت قتيلاً..

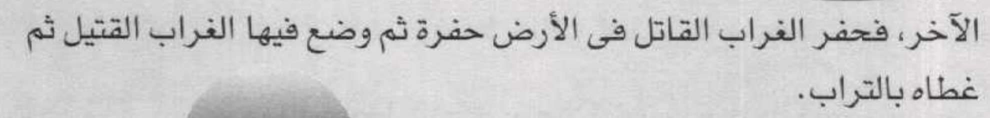
قال الغراب: صدقت يا حسن.. هابيل هو أول من مات من بنى آدم.. وهو أول قتيل فوق ظهر الأرض..

قال أيمن: وكيف استطاع قابيل أن يتخلص من جثة أخيه؟

قال الغراب: لقد شاءت حكمة الله أن توقف قابيل أمام عجزه ـ وهو الباطش القاتل ـ عن أن يوارى جسد أخيه.. وفى هذه اللحظات المريرة التى كان قابيل يعيشها.. أرسل الله سبحانه أمام قابيل غرابين أخوين يقتتلان فيما بينهما، فقتل أحدهما



الآخر، فحفر الغراب القاتل فى الأرض حفرة ثم وضع فيها الغراب القتيل ثم غطاه بالتراب.



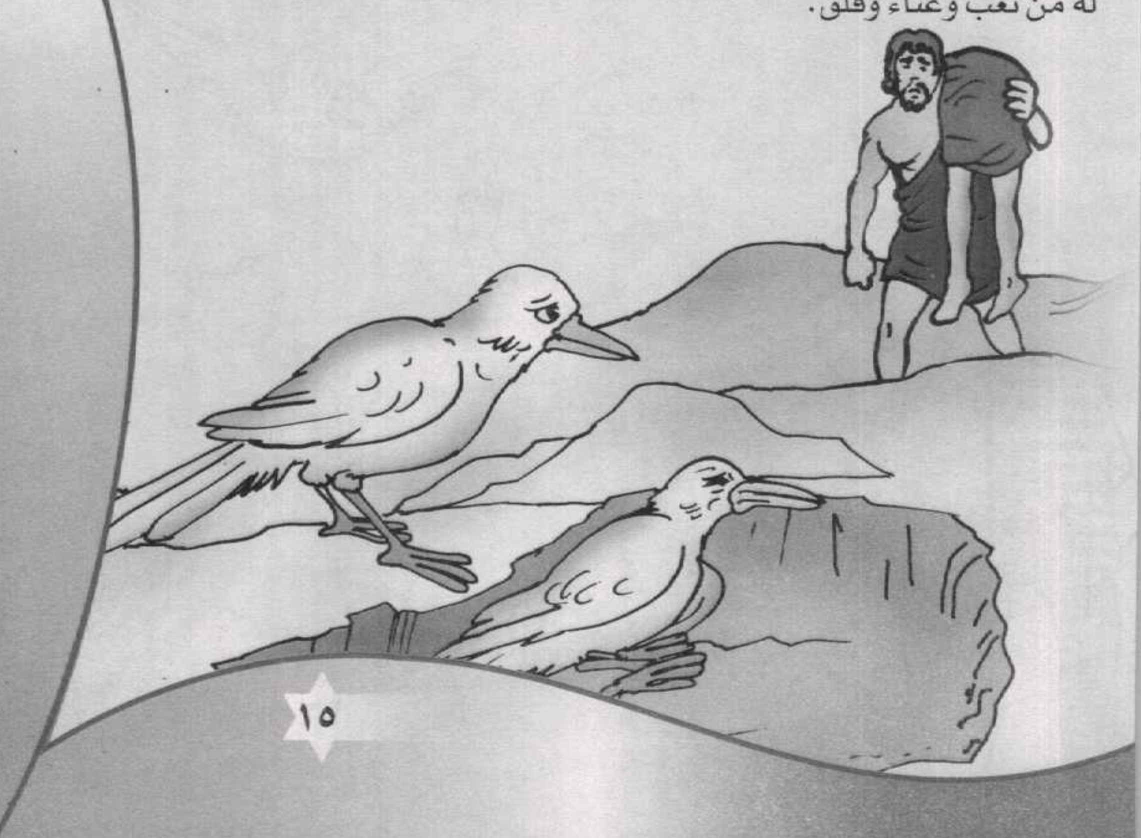
قال حسن: إذن أمة الغربان هى التى علمت الإنسان كيفية دفن الموتى..

قال الغراب: نعم يا حسن.. فلقد دفن قابيل أخاه فى الأرض كما رأى الغراب يفعل..

قال سعد: الإنسان مدينٌ لكم يا أمة الغربان بهذه النعمة العظيمة.. نعمة الدفن.. التى حفظت للإنسان كرامته بدلاً من أن يترك جسد الميت فى الخلاء تأكله الحيوانات والطيور..

قال أيمن: ولكن ماذا فعل قابيل بعد ذلك؟

قال الغراب: لما دفن قابيل أخاه ازداد تحسرًا وندمًا، ولم يكن ندمه ندم التوبة - وإلا قبل الله توبته- وإنما كان الندم الناشئ من عدم جدوى فعلته، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق.



قال سعد: هذا ما كنت أتوقعه، فهذه هى عاقبة البغى والحسد والظلم، وقد قال ﷺ: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم" (الطبراني)..

قال الغراب: صدقت يا سعـد.. قال أيمن: نشكـرك أيها الغـراب على هذه القصة المفيدة.. ونتأسف لك على ما بدر منا نحوك..

قال الغراب: شكـرًا لكم يا أصدقائـى.. فكما أنتم تعلمتم منـى .. فقـد تعلمت أنا منكم أيضًا.. ويسعدنى أن نكون جميعًا أصدقاء منذ اليوم..

قال الجميع: ونحن نرحب بصداقتك أيها الغراب المعلم..

